

حوار الأديان والثقافات
إشكالية الجدوى

الأستاذ الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد[*]

مقدّمة

تقول الدّراسات السكانيّة ودراسات التوزيع البشريّ ضمن نطاق الأديان والثقافات إنّ في عالمنا المعاصر ثلاثة وثلاثين ألف دين ومعتقد، منها ١٢٥ ديناً يتعامل الناس معها والعالم على أنّها أديان إذ يبلغ معتنقو كلٍّ منها قرابة المليون في الحدّ الأدنى من بينها ثلاثة وعشرون ديناً رئيسيّاً.

وتؤكّد تلك الدراسات أنّ ٦٠٪ من سكّان الأرض البالغين سبعة مليارات من البشر تقريباً يتوزّعون بين الإسلام والمسيحية، فيقدّر عدد المسيحيين بـ(٢،٢) مليار[1]. وتعتبر الولايات المتحدة في مقدّمة الدول الكبرى التي لم تهمل تأثير الدين في عمليّة صنع القرار السياسي وتزعم حرصها على الحوار بين الأديان ونشر ثقافة

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية العليا ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، من العراق.

التسامح، لذلك أنشأت لجنة الحريّات الدينيّة الدوليّة (friesu) (FARI) على أساس قانون الحريّة الدينيّة ١٩٩٨ والذي يُصدر تقريراً دولياً كلّ عام في الأول من أيلول، بخصوص تجاوزات الدول على الحريّات الدينية. وقد أشار التقرير في نسخة منه أنّ المسلمين في أوروبا الغربية غالبيتهم من المهاجرين، أما مسلمو أوروبا الشرقية (ألبانيا وكوسوفو) فهم من السكّان الأصليين بحيث يذكر أنّ أكثر من نصف مسلمي أوروبا من السكّان الأصليين[٢].

تقول الإحصائيّات إنّ عدد الكاثوليك من المسيحيين يبلغ فقط حسب إحصائيّة الفاتيكان ١،١٦٦ مليار وعدد المسلمين ١،٧ مليار نسمة بحيث يشكّلون ٢٥٪ من السكان ويبلغ عدد اليهود في العالم (١٤ مليوناً)[٣].

لقد كانت هذه الأقوام وعقائدها تعيش في مناطق جغرافية منفصلة عن بعضها بعضاً، إلا أنّ الاتِّصالات وعالم التواصل والانترنت جعل منها في مقابل الآخر الديني. فلقد تكسّرت العزلة الجغرافيّة وصارت الهويّات الحضاريّة المؤسَّسة على أسس دينيّة تتعامل على أساس جديد هو مواجهة الانفتاح إزاء هذا التطوّر التقنيّ الذي جعل البيانات والتصوّرات كلّها متاحة للجميع. فهل هذا الأمر لصالح تقارب بني البشر أم لصالح الاحتراب والصراع والنزاعات المدمّرة التي تَستخدم الدين دافعاً للناس للمشاركة بالحروب؟

إذ طالما عمد أشرار البشريّة إلى إشعال الحروب و الفتن والصدامات باسم الدين في عالمنا وكان الحدث المعاصر والمهم ما جرى في ١١ ـ أيلول ـ ٢٠٠١ وإزاء ما حصل انشغل العالم منذ تلك الأحداث بنشوء وتطوّر الأصوليّات والعنف باتّجاهين يُسهمان في الجدل الساخن في قضيّة الأديان ودورها في خدمة الإنسان:

الاتجاه الأوّل: وهو اتّجاه المتشدّدين سواء أكانوا في الغرب أم في العالم الإسلاميّ، أمّا الذين في الغرب فيمثّلون باليمين الإنجيلي الأمريكي (بوش الأب)، وصقور الحزب

الجمهوريّ، ومعهم المتعصّبون المسيحيّون ووراءهم القوى المتأثّرة بالصهيونيّة الذين يروّجون لدعوى أنّ الإسلام عبارة عن نظريّة عمل في العنف وتدمير الحضارة واستعانوا بأمثلة من التاريخ منها السياسات التاريخيّة للعثمانيين تجاه الأرمن مثلاً وهجوم المتطرّفين من القاعدة على مانهاتن. وإزاء ظاهرة الإسلام السياسيّ في الشرق الاوسط وأوروبا وظهور أصوليّات إسلامية سياسيّة، اندفعت الكنيسة إلى عالم السياسة بشكل واضح في فترة البيروسترويكا وتهاوي أوروبا الشرقية فكانت حاضرةً في بولونيا من خلال نقابة التضامن ومع هدم جدار برلين فقدّمت فلسفتها الاجتماعية في الديموقراطية المسيحيّة ودعمت مادياً ومعنوياً (الأحزاب المسيحيّة الديموقراطية) وأعطت مسحةً من القداسة للسياسة، إلا أنّ الواقع لم يكن متطابقاً مع استشرافات الكنيسة إذ إنّ الديموقراطية تتأسّس على حريّة الضمير ومبدأ الأغلبيّة والكنيسة تتأسّس على الحقيقة والعصبة. وهذا بالضبط ما نصّت عليه نصوص الإنجيل[٤].

ومنذ قيام الدولة العثمانيّة في أوروبا أيّدت الكنيسة علمانيّة الغرب واعتبرت نفسها صاحبة الأطروحة، فهي التي ثبّتت المبدأ في أناجيلها (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)[٥]. لكنّ العلمانيّة حالياً تحاصر نفوذ الكنيسة وتُظهر مقولة الدين المدنيّ في أمريكا كأطروحة لما بعد الحداثة في الفكر السياسيّ الامريكي. وكإجابة عن سؤال إلى أين تسير الكاثوليكية اليوم يقول برولاي: يوجد تيّاران في الإجابة عن هذا السؤال:

يؤكّد التيّار الأول أنّ المسيحيّة رسالة سلام وتقدّم، وقد تبنّت مقرّرات المسكونية فكانت رسالة نبيلة.

وتيّار متأثّر باليهودية يرنو إلى أورشليم ويعدها أولويّة المؤمن[٦] ويتدخّل في الشأن العام ويمارس ضغوطاً على الآخر الدينيّ.

وربما يبدو التقسيم السالف من حقائق العالم المعاصر، إلا أنّ المتطلّع له إنسانياً أن تُصبح الكنيسة أكثر مسيحيّة وأكثر ارتباطاً بالإنسان.

لقد صدر عن اليمين الإنجيلي كتاب من نحن [صدام الحضارات][7] وكتاب [الإنسان الأخير][8] وكتاب [تصدّع الهويّة] وعشرات الأطروحات و الدراسات التي تركز على نظريّتين:

الأولى تلك التي تزعم تكامل النظريّة الغربيّة معرفياً ومنهجياً وقِيَميّاً ما يترتّب عليه حمل شعوب العالم على اعتناقها واعتبار ثقافات وأديان تلك الشعوب ثقافات متخلِّفة لا تستطيع أن تتعايش مع موجبات الحداثة.

الثانية: تلك التي تحاول البرهنة على تخلّف الرؤية الإسلامية بالذات وتصادمها مع الحداثة ولكثرة التبشير عنها وأصبحت فلسفات تبرّر غزو أفغانستان والعراق، والسكوت عن تدمير الشيشان، والصومال ولبنان وضرب غزة وعشرات الحملات الحربية الأوربيّة ومعارك الناتو على العالم الاسلامي ما يخلق شعوراً عامّاً بعودة الحروب الصليبيّة في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين.

أمّا في الطرف الإسلامي فقد كان ردّ الفعل على هذه الاستراتيجيّات احتشاد الملتزمين الإسلاميّين وراء تنظيمات متشدّدة كالقاعدة، وتفرّعاتها الجهادية. على أنّ الظنّ المؤكَّد أن أغلب المنتمين للفكر الإسلامي السني لم يتفقوا في أصولهم تماماً مع أصول تنظيم القاعدة.

ولأنّ موضوع النزاع التاريخيّ الإسلاميّ الأوروبيّ تحوّل من موضوع كان يُفترض أن (يُناقش معرفياً وسياسياً) إلى موضوع للتصادم المتبادل، ويقدّم النزاع للناس بوصفه قلقاً فلسفياً على الهويّة والاعتقاد ثمّ استخدام النزعة الصراعية كوسيلة من وسائل حماية الهويّة، والدِّفاع عن الدين والمعتقد والتضحية بالتقدّم الإسلامي من أجل كلمة الله لدى كلا الطرفين، فالتصرّفات الكاثوليكيّة إزاء المسلمين في فرنسا تجري تحت هذا الهاجس، ونزعة الانتقام التي يعاني منها المسيحيّون في بلدان العالم الاسلامي تجري تحت هذا المسوّغ، وكل ذلك يجعل من الحوار فعاليّات في خارج

التطلّع الراهن، أي حوار النخب الذي لا يلامس أو يُسهم في حلّ مشكلات اليوم.

الاتجاه الثاني: هو الاتجاه الذي يسعى للحوار بين الأديان والحضارات، ففي الغرب دعا الكثير إلى الحوار بين الأديان لدوافع واقعية منها إيقاف موجة الإرهاب المنتشر في كلِّ العالم وتنامي الأصوليّات في الغرب وإسرائيل وفي العالم الاسلامي المتجه نحو أوربا والغرب بالدمار. وكانت تلك الدعوى قد بدأت عام ١٩٦٥ بقرار المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٥). يقول الاستاذ رضوان السيد: إنّ المبادرة ظهرت في الخمسينيّات من الكنائس البروتستانتيّة ثمّ تلاها المجمع الفاتيكاني وانعقدت على أثرها مواسم ثقافيّة في الجامعات ومراكز الأبحاث. وكانت الحرب الأهليّة اللبنانية ١٩٧٥ـ ١٩٩٠ جزءاً من محرِّكات هذا الحوار، فقامت مجموعة من المؤسسات لرعاية مثل هذه الفعاليّات[٩]، ولعلّ قرار المجمع الفاتيكاني الذي وسّع مفهوم الخلاص المسيحي ليشمل كلّ الإنسانية، أجاز التعاون بين الأرثوذكسي البروتستانتي مع المسيحية الأم الكاثوليك[١٠].

وفي العالم الإسلامي هناك قوى تنويرية دعت إلى الحوار في مطلع مشروع النهضة في القرن العشرين وتنامت بعد انتهاء الموجة القومية، واليسار الستيني، ففي مرحلة ما بعد السبعينيات في العالم العربي ظهرت دعوات للحوار والتفاهم والعيش المشترك مع الغرب. ويجدر التنويه أنّ هذا الأمر كان قد ظهر في مفتتح القرن العشرين على يد (جمال الدين الأفغاني)، ولكن لم يواصل الدعوة له تلميذه محمد عبده أو محمد رشيد رضا، ولم يلتزم به الخط السياسي الإسلاميّ (الإخوان المسلمون) الذي تبنّى مبدأ معاداة الغرب فكرياً وفلسفياً وحضارياً، فأدخل معاداة أديان الغرب في كراهية الغرب إجمالاً بعد جولته ومنازلته مع اليسار الدولي. ولا يزال الإسلاميون في أدبياتهم يحذرون من القلق على الهوية الاسلامية من الوافد (الفكريّ والفلسفة الغربية) والمناهج الأوربيّة في فهم النص الديني. ويكاد يكون ذلك معتقد إجماع

الحركات الإسلاميّة السياسيّة.

إنّ حاجة العالم الإسلاميّ إلى درجة من التفاهم والحوار مع الغرب وظهور التجربة (الليبرالية) الإسلاميّة التركيّة، وتجربة ماليزيا الحضاريّة والدور الإيجابي للأقليّات الإسلاميّة في الغرب، والدور الإيجابي للجامعات في أوربا وفي العالم الإسلامي، إنّ كلّ تلك الجهات أوجدت مناخاً لتقبّل موضوع حوار الأديان كفكرة أو مشروع قابل للتداول. ورغم ذلك ظلّ مشروع حوار الأديان تكتنفه الضبابية وعدم الوضوح ربما حتّى عند المعنيين به والمتصدّين له. وقد تباينت المفهومات والإطلاقات التي يفرزها هذا المصطلح. وسأتطرق بإيجاز لعدة إطلاقات ورؤى تداولية لمفهوم (حوار الأديان) على الوجه الآتي:

هل يجري لإثبات تفوق دين على دين آخر؟

هل هو بحث في مزج الدينين وتشكيل حضارة دينية واحدة؟

هل نريد توظيف الدين للاستفادة من العلوم والآداب والفنون لتطوير وعي الإنسان وذوقه؟

هل مناط البحث استثمار الدين لإنقاذ البشرية من هاوية الصراع النووي؟

هل يراد تأسيس قرية عالمية ذات دين واحد؟

هل نسعى لاكتشاف مشروع للسلام والأمن العالميين؟

هل نريد اكتشاف نموذج لنظام عالمي جديد (World Order)؟

وعلى المستوى الإسلامي يتساءلون:

هل نحن اليوم صنّاع حضارة أم ممن يتلقونها؟

هل نريد إعطاء شيء وأخذ شيء؟

هل نريد صياغة قيم نبيلة مشتركة ونلتزم بها؟

هل لدينا قدرة وضمانة تنفيذيّة؟

و أخيراً يتساءلون: هل شروط الحوار متوافرة؟

الحاجة المشتركة، اللغة المشتركة، القدرة الكافية، احتمال الوصول إلى نتائج، تحديد موضوع الحوار.

من خلال ما تقدم ظهرت عدة رؤى:

الرؤية الأولى: أولاً يتساءل المفكِّرون الإسلاميون عن المقصود من الحوار.

إنّ الحوار بين الأديان لا يستهدف أكثر من صيغة لتعايش شعوب متعدِّدة المعتقدات تعايشاً سلمياً، ولا شأن لهذا التعايش بالعقيدة إنّما يستهدف الحوار اعترافاً واقعياً بوجود القوى المؤثرة في الواقع وإيجاد صيغة تعايشية فيما بينها.

الرؤية الثانية: إنّ الحوار بين الأديان وسيلة لاكتشاف حقائق (المشتركات العقائدية) بين الأديان الثلاثة، فلا يمكن بناء صيغة للتعايش لا تستند إلى بنية تحتية للفكر والعقيدة وقاعدة فلسفية أو عقائدية تضمّ المشتركات من هذه الأديان لتكون هي الجامع لهذه الشعوب.

الرؤية الثالثة: إنّ الحوار بين الأديان وسيلة للتقارب العقائدي والقيمي والتشريعي بين الأديان الكبرى فلا بد من إيجاد صيغة تضم عقائد وقيماً ونُظماً مشتركة.

الرؤية الرابعة: إنّ الحوار بين الأديان هو طريق للوصول إلى دين واحد تؤمن به كل الشعوب، فالهدف (توحيد الأديان الكبرى بدين واحد) هو دين الإنسانية[١١].

موازنة الخيارات

وكنتيجةٍ للدِّراسات فإنّ الخيارات الثلاثة الأخيرة تكتنفها صعوبات كبيرة. ولعلَّ أفضل رؤية تداولية لحوار الأديان هي الرؤية الأولى التي تعبِّر عن رؤية للوصول إلى تعايش الشعوب الموجودة على أساس قبول الآخر فقط، وتستبعد تماماً المناظرات العقائدية، وتركِّز على الوجود الفعلي (للأمم أو الدول) للكيانات التي تنطوي على ثقافات أصلها ديني بحيث تشكِّل لها هوياتها الحضارية، لذلك فإنّ الهدف هو أنّ

القوى الناتجة عنها بدل أن تدخل في صراع تدميري فإنّ حوار الأديان يُسهم في اكتشاف صيغة للسلام بين هذه القوى، ويخفِّف من التنافس الشديد بينها على الثروات والأسواق والنفوذ حقيقة ويقلّل من هواجس الخوف من الآخر والترقب من تداعيات الاختلافات العقائدية كسبب مُعلَن.

إنّ ما يعزِّز هذا الخيار أنَّه من جهة الغرب قد أصبح ضرورةً من ضرورات الرأي العام وتراه مطلوباً؛ لأنّ الغرب يخاف من تنامي الموجه القتالية التي برزت ليس فقط في تنظيمات القاعدة إذ ربما هذا الخيار يصل إلى عدد من الخلايا النائمة في الفكر الأصولي الإسلامي. ويعتقد الأوروبيون أنّ هذه (الفوبيا) من الإسلام التدميري يمكن الخلاص منها بحوار الحضارات والأديان والثقافات الذي يوجد مناخاً سلمياً بين الشعوب والأمم والثقافات.

ومن الطرف الإسلامي فلأنّ شعوب العالم الإسلامي ضعيفة عسكرياً واقتصادياً ولا قِبَل لها بمواجهة القدرات الغربيّة لذلك عليها أن تستبدل علاقات المواجهة بعلاقات الحوار، أي أن تقوم بتقدير حكيم لموازين القوى على مسارات التعاطي فيما بين الكيانات، وعليها أن تستخدم التقية في المجال الدولي لذلك يتجه أصحاب هذا الخيار إلى اعتماد استراتيجيات حوار التعايش بوصفها وسائل للتعايش، رغم اختلاف المعتقدات وليس حوار العقائد لإقناع الآخر بعقيدة ما، لأنّ في ذلك خطورة كبيرة ولأنّ هدف هذا الاتجاه هو تحسين مستوى العلاقات بين القوى والسعي المشترك نحو الإنماء الإنساني بلا تمييز بين الشعوب على أساس الدين أو المعتقد.

إنّ شروط نجاح هذا الاتجاه: ألا يتمّ التطرّق إلى القضايا العقائدية في خضمّ حوار الأديان، ويُتطلَّع الى وجود قاسم مشترك بين كلِّ الأديان؛ لأنّه ليس بصدد المناظرة العقائدية ولا يجعل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان شرعة يتحاكم إليها المتحاورة في [تداوليات حوار الأديان] .

خصائص الاتّجاه التعايشي

إن هذا الاتجاه يجيز قراءة أفكار الآخر وفلسفاته ممّا كان يعد من الممنوعات، وينظر إلى التعدد بوصفه تنوّعاً ثقافياً وليس تضاداً، وإن لم يعترف به ويعامله على أنّه تنوّع ثقافي إنّما بوصفه واقعاً فقط دون أن يمنحه الشرعية العقائدية ويصر أصحابه على أن يكون الحوار حصراً في الأمور الدنيوية دون العقائدية.

لقد عرّف اليونسكو الحوار بأربعة مقومات: احترام الآخر وحرياته وعقائده وطقوسه، الاعتراف بأنّ الاختلافات كلها مشروعة، إنّ التعدّد عبارة عن التنوع الثقافي القائم حقيقة ولا يجوز أن تصادر وهي مصدر قوة، قراءة أفكار الآخر وفلسفاته عمل مشروع مطلوب ومشجع عليه.

خصائص الاتجاه الثاني

أما الاتجاه الثاني: فهو يسعى إلى تأسيس الحوار على المشتركات العقائدية. ويرتكز هذا الاتجاه على أنّ أصل الدين واحد أي إن الأديان كلها ذات جوهر واحد مهما اختلفت الصيغ والأشكال، وعلينا ألا نهدر الوقت في البحث عن الاختلاف في الشرعة والمنهاج، لذلك من السهل الوصول إلى عقائد مشتركة على الأقل في مجال الفضائل والقيم الأساسية والمعتقدات الكبرى ليقوم عليها والتعايش ويركز هذا الاتّجاه على: إيمان الأديان كلها بالربوبيّة، إيمان الأديان كلها بالنبوات والوحي واتّباع النبوات، إيمان الأديان كلها بالمعاد والمسؤولية واليوم الآخر، وجود قيم وفضائل نبيلة تشترك فيها الاديان الكبرى.

ويدافع هذا الاتجاه عن أطروحته بأنّ السلام والتعايش لا يمكن أن يقوم على الاختلاف إنّما يقوم على الالتقاء على المشتركات، ويؤيّد ذلك بأنّ الإسلام يحتوي على كلّ المشتركات الدينية التي يركز عليها التنويريون الإسلاميون للتفاهم والتحاور والتعايش على أساس المشترك العقائدي.

وفي الجانب المسيحي هناك جمع من الكنائس والمجمعات الدينية التي آمنت

بتوسيع مفهوم الخلاص ليشمل كلّ الإنسانية. وهذا القرار الفاتيكاني من أكثر القرارات انسجاماً مع معطيات الحوار، والذي يؤسِّس لخطوة أخرى هي (التعاون) مع أهل الأديان، ودراسة الآيات القرآنية التي تذكر المسيح ومريم والرهبان الذي تفيض أعينهم من الدمع، والاتفاق على بعض الأصول العقائدية والقيم الأخلاقيّة.

إنّ هذا الاتجاه يرى أنّ التفاهم بلا مشتركات عقائدية ليس حواراً للأديان، إنّما هو حوار للقوى والدول والأمم والشعوب أو هو في أحسن الأحوال حوار للثقافات، يبدأ من منطلقات منفعية غير دينية، وينتهي إلى نهايات براجماتية، لأنّه حينها لا يكون الاتفاق على أصول مشتركة أو قيم دينية مشتركة يؤسس عليها التعايش السلمي فلا يعد ذلك حواراً للأديان.

خصائص الاتجاه الثالث

الاتجاه الثالث: ويعتقد أصحابه أنّ الحوار لا يكتفي بالمشتركات العقائدية فلا بد من أن تُضمّ لها المشتركات القيميّة والأخلاقيّة، واللوائح القانونية المشتركة، ويعلن عن أنّ الحوار ليس وسيلة للاقتراب العقائدي فقط، إنّما اقتراب قيمي أخلاقي، فإنّ العالم اليوم يشهد أزمة أخلاقيّة بالدرجة الأساس، ثم اقتراب نرمي منه إلى الإقرار بحرية الأديان والتدين، ولكن هذا الإقرار يتعارض مع التمسك بفقه الردة وعقوبة المرتد عند المسلمين، وربما نجد مثلها عند اليهود والمسيحيين. ويتطلّب الاتجاه الثالث إنهاء فكرة الذميين والجزية والتمييز ضد الكتابيين في المدوّنات الإسلامية، ويريدون إنهاء إعلان المسلمين لكفر اليهود والنصارى، وفي الاستجابة لمطلب التنازل عن كفر اليهود والمسيحيين هناك أنموذجان:

أنموذج الشيخ يوسف القرضاوي الذي يكفّرهم لكنه لا يمنع من القول بجواز التقارب معهم، ولذلك يعتبره المتشددون (مبتدعاً)، رغم مشاطرة لجنة حوار الأديان بالأزهر له.

أنموذج محمد عماره الذي لم يعتبرهم كفّاراً؛ لأنّه فسر الكفر بالجحود بالألوهيّة، والحال إنّهم موحِّدون، والكفر حصراً عبادة غير الله من عبادة الشمس والحيوانات والأصنام، وقد كفّر المتشدّدون أصحاب هذا الاتجاه لأنّهم لم يكفّروا أهل الكتاب. إنّ الاتجاه الثالث يحاول اكتشاف المناطق المشتركة بين الأديان الثلاثة في عموم الميدان الديني (العقائد / القيم / النظم والتشريع)، وهذه المحاولة رغم أنّها تهدف (كما يروّج لها) إلى توسيع دائرة المشترك إلا أنّها تنطوي على مخاطر ظهور اختلافات كبيرة يمكن إن تهدر المشروع برمته.

مقوّمات اختيار الاتجاه الأوّل

إنّ الخيار الأول هو الخيار الأكثر إمكانيّة، رغم أنّ الفكر الإسلامي لا يضيق ذرعاً بالخيارات الثلاثة ولكنه لا يتّسع للرابع، لما فيه من الموانع، والخيار الأول أكثر راجحية في التحقيق العملي؛ لأنّ المسلمين يعتقدون بأنّ اختلاف عقائد الناس سنة كونية أكد عليها القرآن الكريم، فقد قال الله في محكم كتابه المجيد: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ (هود،١١٨).

ولأنّنا مأمورون بالتعامل الحسن مع أتباع الأديان الثلاثة لقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (العنكبوت، ٤٦).

ولقوله تعالى: ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (الممتحنة، ٨)، وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾ (آل عمران، ٦٤). وقد فسّر المفسِّرون الكلمة السواء بأنّها الإعمال الصالحات للبشرية جمعاء.

ولأنّ القرآن ألزمنا بمبدأ (تكريم الإنسان) ومن التكريم احترام خياره الديني، ولأنّنا نعتقد أنّ الإسلام قد احتوى الأصول الدينية كلها فأياً كان الموحِّد فهو يحمل جزءاً من الإسلام المهيمن لقوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا**

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى، ١٣).

لذلك لا يجد الباحث أنّ مبرّرات الممتنعين عن الحوار مع أهل الأديان مبرِّرات كافية لتأسيس موقف رافض للحوار مطلقاً.

إنّ الحوار ربما يؤدي إلى أغناء التجربة الدينيّة والحضاريّة التي ترتقي بالإنسان إلى الأفضل والأكمل. وربما تشكِّل هذه التجربة أرضية لاستثمار الأديان للتخفيف من الشرور والجرائم وعمليّات إزهاق الأرواح ومصادرة حقوقهم وتجويعهم ونهب ثرواتهم واستخدام القوة لسلب الحقوق. ونعتقد أيضاً أنّ حضارة الغرب الصناعية والتسليحية بحاجة إلى تجربة دينية تقلّل من جفاف النزعة المادية لها وتزرع في وعي التفكير الغربي نزعة إنسانيّة.

والقرآن الكريم الذي نهى في آيات كثيرة عن العدوان والاعتداء لا يمكن أن يكون مشروعاً للقتل والإضرار والإبادة تحت مدَّعيات دينيّة.

كما أنّ الإنجيل الذي يدعو إلى التسامح والمحبّة لا يمكن أن يدفع معتنقيه إلى إشعال الحروب المدمِّرة ضد الشعوب الفقيرة. لذلك فإنّ عمليّات الإضرار بالإنسان واستخدام العنف لا يمكن أن تكون تطبيقاً لنصٍّ تاريخيّ.

ونرى أنّ المدنيّة الأوربيّة المعاصرة كلَّما تطوّرت احتاجت إلى قيم دينية لتلطيف عنفوانها وتقليل هيمنتها على العالم الفقير والمتخلِّف.

لكنّنا نقف ضد من يدعو إلى جواز تقديم تنازلات عقائدية للآخر، تحت مبرّر إنجاح حوار الأديان. ونتحفّظ على الإطلاق غير المحدَّد لمقولة إنّ الأديان جوهر واحد مهما اختلفت الصيغ والأشكال، فتلك كلمة حق، لكنّ التدرج في أزمان الاديان مرتبط بالتطوّر النوعيّ لحكمة الإنسان وعقله بتقدير الباري تعالى ذلك؛ لأنّنا نؤمن أنّ التدرّج الدينيّ تابع لتطوّر الممارسة الاستخلافيّة للإنسان على الأرض، والأديان بتتابعها فإنّها تنطوي على حكمة التدرّج كما نؤمن بأنّ الأديان قد صرَّحت بنظريّة النسخ.

لذلك لا نرى إذا ما دخلنا في الحوار من بوابة عقائديّة أنّ الحوار سينتهي إلى نتائج طيّبة، بل ستكون هناك تقاطعات كثيرة وعلينا أن نلتزم بأنّ الحوار لا يهدف إلى إقناع الآخر بدين الطرف الثاني، بل علينا أن نكتفي بتحقيق غاية قبول الآخر لدى أتباع الديانات السماويّة.

وأيضاً ربما سيقلّل الحوار بين علماء الأديان من ذلك الموروث العدائيّ السلبيّ المتراكم في الذاكرة الأممية، وما هو تاريخي من صنع الإنسان واجتهاده وليس صنع الله مثل الحروب الصليبية التي شنها حملة الصليب على المسلمين وحروب العثمانيين على الأرمن.

ربما نقبل القول إنّ جوهر الرسالات السماوية وهدفها هو الإنسان الذي خلق للعبادة، ولولا الإنسان لم يكن الكون بحاجة إلى هذه الأديان الكثيرة، والأنبياء الذين يزيدون على عشرات الآلاف. ونلفت النظر هنا إلى أنّنا لا نقلّل من آثار الكثير من مدارس الاستشراق الذي أعمل منهجه العدائيّ والأيديولوجي في التراث الإسلاميّ ممّا حفر في ذاكرة الوعي عند الإنسان المسلم رؤية عدائية للاستشراق مملوءة بالخوف والتوجُّس من كلٍّ نتاج غربي في مجال الإنسانيّات، ولا نقلل من إشكالية تجذُّر الخلاف منذ قرون، وعقم المحاولات السابقة للحوار مثل مؤتمر مدريد، ومؤتمر قطر، وعشرات اللقاءات التي جرت بين علماء الأديان، كما لا نقلل من تأثير الحروب الغربيّة حالياً على بلدان العالم الإسلامي التي لا تزال مستمرّة إلى الآن و التي تُعتبر مانعاً.

إنّنا نُلفِت النظر إلى أنّ (النادي المسيحي الأوروبي) لم يقبل تركيا عضواً فيه لا لشيء إلا لأنّ ثقافة الأتراك التاريخيّة ليست ثقافةً مسيحيّة مع ادِّعاء أنّ ثقافة الشعب التركي لا تتوافق مع ثقافة شعوب الاتِّحاد الأوروبي. ونرى أنّ تلك الصعوبات كلها يمكن التعامل معها، متى كانت النوايا صادقة والقلوب طاهرة وكان الحرص على مصير الإنسانية المعاصرة حرصاً حقيقياً.

موقف الشيخ شمس الدين من حوار الأديان

يعتقد الشيخ محمد مهدي شمس الدين أنّ القيم النبيلة قوّة فعّالة لحياةٍ إنسانيّة ممتازة، وأنّ الحضارات الإنسانيّة الكبرى لا تنمو إلا في ظلّ القيم التي تخفّف من قسوة المدنيّات الماديّة.

ويشخّص الشيخ أزمة الحضارة والإشكال التاريخيّ للحوار مشيراً إلى أنّ حضارة الغرب المادية إلحاديّة أو ذات إيمان شكليّ، وهذه المدنية وفّرت اللذة دون السعادة فهي ليست مرتكزة على الضمير أو الشعور بدور إيجابي وأنّ سلام هذه الحضارة للإنسان قائم على توازن قوى الرعب.

إنّ المشروع الحضاريّ الغربيّ غير الإيمانيّ، والتهديدات الموجهة لحياة الإنسان الغربي ومتطلباته ولدت الحاجة الى الحوار بين (الإسلام والمسيحيّة).

ويرى الشيخ أنّ الإسلام والمسيحيّة كلاهما دعوة للخلاص في الدنيا من الشرور وكلاهما يزاوج في رؤيته بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ووسائلهما مختلفة، وكلٌ منهما يصرّ على أنّه الوسيلة الوحيدة للخلاص.

إعادة الاعتبار للقيم

يعتقد الشيخ شمس الدين أنّ القيم قوَّة فعّالة لحياة إنسانيّة ممتازة، وأنّ الحضارات الإنسانيّة لا بد أن ترتكز على قيم الضمير الذي يخفّف من قسوة التطوّر التقنيّ، والاحتمالات في حوار اللاهوت ـ علم الكلام الاسلامي.

هل يغير علم الكلام الإسلاميّ المسيحيّة من الداخل لتتّحد مع الإسلام؟ والجواب: إنّ هذا الاحتمال غير وارد.

هل يغيّر كلا الدينين بعض مفاهيمهما ليتوحد الدينان في دين واحد؟ والجواب: إنّ هذا الاحتمال أيضاً ليس احتمالاً قوياً وتقف في وجهه عقبات كبيرة تحبط الحوار.

وإذا عرفنا أنّ الإسلام والمسيحية عالمان ثقافيّان وكلاهما لديهما معاً رؤية في (صيغة

الحياة) (عقيدة، قوانين، قيم أخلاقية) فإنّنا نتطلّع إلى ما هو إيجابيّ في رؤيتهما معاً.

فالعقائد ليست مجالا للاجتهاد لأنّها من (الثوابت). وأساسيات الشريعة أيضاً من الثوابت. فكلاهما ليسا موضوعاً للاجتهاد والحوار والتعديل والاندماج، فلم يبق إلا موضوع الاجتهاد في المتغيّرات القابلة للتغير استجابة لضرورات الزمان والمكان، على أن يجري وفق آليات إسلاميّة.

الصيغة المطلوبة للحوار

يعتقد الشيخ أنّ المراد من الحوار اكتشاف المساحات المشتركة في رؤية المسيحيّة وفي الرؤية الإسلامية فيما يخص (الانسان، المجتمع، الحضارة)، فإذا جرى الاكتشاف يتحقق فتح روحي للحضارة المعاصرة ويكون لكل دين مجالان لبناء الإنسان المتكامل والمجتمعات الرشيدة والدول العادلة، مجال خاص لأتباعه في بناء إنسان أفضل (المسيحي الأفضل، المسلم الأفضل) ومجال تقديم رسالة حضارية يقدِّمها ذلك الدين للعالم أجمع تتضمن رؤيته لعالم أفضل.

أمّا المساحات المشتركة الموجودة بين المسيحية والإسلام فهي الايمان بالله، اليوم الآخر، الأنبياء وأصحاب الرسالات، وأنّ للإنسان بُعداً روحياً، وأنّ العبادة حاجة إنسانيّة، وأنّ كرامة الإنسان شرط لوجوده، ولا بد من الاعتراف بالأخلاق الفطرية، وضرورة أن يكون إطار التقدّم التقنيّ إطاراً إنسانياً.

مراحل الحوار

يعتقد الشيخ شمس الدين أنّ مراحل الحوار تبدأ من الإجابة عن سؤال مهمّ: كم ستتدخل الرؤيتان في صيانة قيم المشتركات سواء أكانت جزءاً من الاصول أم من شرح التفاصيل؟

وبعد اكتشاف المشتركات لا بد من توجيهها نحو ترميم الوضع الإنسانيّ، فلكلٍّ

دينٍ أصوله الاعتقادية والقيمية، ولكي لا نقع في الخطأ، لا بدّ من الوقوف على تفاصيل تلك الأصول وضبط المشتركات ثمّ توجيهها لوضع الإنسان الحالي.

إنّ أبرز جدوى للحوار اكتشاف مشروع صيغة جديدة للحضارة من خلال (مناقشة المشكلات الإنسانيّة المعاصرة على أن ينتج عنه أساس هذه المشتركات).[١٢]

هل لاحظ كلُّ دين مسألة التعايش مع الآخر، ونظّر لها تنظيراً عقائدياً وقانونياً؟

إنّنا نلحظ أنّ الأطروحة العلمانيّة أقامت فكرة التعايش بين المسيحيّة والإسلام، والإسلام والمسيحيّة أولى من العلمانيّة في إقامة صرح التعايش.

في عالمنا الاسلامي لا بد من الاقتناع بأنّ المسيحيّة والمسيحيّين حقيقة قائمة موجودة معترف بها اعترافاً واقعياً، ولا مانع من العيش المشترك معها على أساس نظريّة (المجتمع السياسيّ) الخاضع لالتزامات واحدة: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الأحزاب، ٨).

ومن الممكن الاستشهاد بمجتمع إسلامي فيه مسيحيون لهم دور فاعل في المعرفة والإدارة، فليس لدينا ما نخجل من الاستشهاد به كما حصل في مجتمع أسبانيا من تحريم وجود الأديان الأخرى ولنلحظ أنّ الاستعمار قد دخل مع التبشير بالمسيحية إلى العالم الإسلامي وأدخل إليه (إسرائيل).

واستناداً إلى نظريّة الشيخ شمس الدين لحوار الأديان نلحظ أنّه قد دعَّم هذه النظرية بآرائه لأتباعه فهو يرى أن لا مانع من تولّي غير المسلم أية وظيفة في الدولة الحديثة، دولة المؤسسات القائمة على التمثيل البرلماني، والتي تدار من مؤسسات ومجالس الشورى وتنظّم عملها الدساتير.

قضية الخلاص

يعتقد الشيخ أنّ كلَّ دينٍ يرى أنّه عقيدة الخلاص الوحيدة ولا خلاص خارجها،

يقضي الاسلام بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران، ٨٥)، والمراد الخسران الأخروي دون الدنيوي، ويشير إلى موقف الآخر بقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة، ١١٩).

أمّا الموقف الفاتيكاني الأخير من توسيع نطاق الخلاص فينسجم مع الموقف الإسلاميّ لمن لم تبلغه الدعوة أو بلغته ولم يعقلها بسبب ضعف المبلّغ (الأحوال والظروف) فلا يحكم بالهلاك الأبدي.

الخاتمة

ألا يمنع الحوار الحروب الأمميّة باسم الدين؟

أن لا نُكره أحداً ابتداءً على اعتناق أي دين (لمبدأ لا إكراه)، ولا يكرهنا أحد على التخلّي عن تراثنا ومعتقداتنا بكلّ الوسائل حتّى الإعلاميّة منها.

أن تمنح الأقليّات الإسلامية في أوروبا حريتها الكاملة لممارسة عقائدها وطقوسها وحريتها في الدعوة لأفكارها، وهذه الدعوة ترتكز على (فلسفة مواطنة) والتي هي ناتج عن علمانية الغرب التي قدّمت المواطنة كرسالة حضاريّة عالميّة لها، وهي في التصوّر الإسلامي ناتج عن مبدأ لا إكراه في الدين، ومبدأ المساواة و التكريم القرآني للإنسان كرسالة حضارية من المسلمين للأمم كافّة.

نعتقد أن على المسلم الإقرار بالأديان السماوية جميعاً وهذا امتياز للمسلم في حوار جدي للأديان يلزم أن يُقابل بمثله في الأديان الأخرى.

نرى أنّ حوار الأديان ربما يسهم في تقوية صلة الإنسان عموماً بالله وتقليل الشرور الإنسانية والوقوف ضد الإلحاد والإباحيّة وإعلاء القيم التي تصنع الإنسان الفاضل والمجتمع الرشيد وهذا الهدف سام ومقدس وإنساني يجب أن تسعى له كل القوى النبيلة.

يُسهم الحوار في إيضّاح تحريم الإرهاب واستخدام القوة بكل إشكالها كوسيلة للتبشير ونشر الدين.

وكذلك لا بد من مراعاة اختيار الأغلبية في أيّ بلد للفكر الديني، فإذا اختار المسلمون الإسلام فعلى غيرهم الالتزام بخيارهم وكذا العكس على الأقليات المسلمة في أوروبا مراعاة اختيار الأغلبية في بلدانهم.

وكذلك يشجّع على التضامن بين أتباع الأديان الثلاثة جميعا لنصرة المستضعفين والمضطهدين والفقراء والمرضى ويوحِّدهم في مواجهة الأزمات والمجاعات والكوارث في فعل إنسانيّ كبير. ويعمّق الحوار أواصر الصداقة وتبادل الزيارات وحضور الطقوس الدينية لجميع الأديان.

ويسهم الحوار في مراجعة الموروث التاريخي السلبيّ، وطي ذلك الموروث الذي يعكر صفو المحبة بين البشر وفتح صفحة تعامل جديدة على أسس إيجابيّة.

الهوامش

1) الخفاف، عبد علي، الحريات الدينية.
2) المصدر نفسه.
3) المصدر نفسه.
4) انجيل متى ١٩:١٦/ انجيل يوحنا ١٣:١٦
5) انجيل متي ١٩:١٦
6) انجيل متي ١٩:١٦
7) هنتنغتون، صموئيل، صدام الحضارات، ص١٢١.
8) فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير.
9) السيد، رضوان، مداخلته في مؤتمر جامعة اللويزة.
10) مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ١٩٦٥.
11) دعوة جمال الدين الأفغاني وآخرون مطلع القرن العشرين.
12) شمس الدين، محمد مهدي، لبنان الكيان والمعنى، ص٣٢.